وأحاسيسه ويدفع إلى رفضه، وبخاصة أنه كان يضع هذا الواقع إزاء صورة الماضي الزاهي المجيد، وإزاء صورة الغد المشرق: غد التحرير. هذا الغد الذي سيقبل حتماً. وكي يؤكد نبوءته ويقنع المتلقي بها يستعيد التاريخ العربي ويعرض نماذج مشرقة منه حُقِّقت فيها انتصارات كبرى. ثم يقبل إلى النكبة فيناقش حدوثها ويعرض أسبابها وينتقل إلى مسألة العودة فيفصِّل في ذكر معوقاتها... وينتهي إلى تقرير حتمية الانتصار... وهكذا كانت شرارات الشاعر وجمراته، في صقيع المنفى الرطب الحالك، زاداً وضوءاً ودفئاً.

يتكرَّر هذا كله في قصائد الديوان. وهو لا يتكرَّر أفكاراً مستقلَّة كما عرضنا، فالعرض إن هو إلا من مقتضيات الدراسة، وإنما وفق طبيعة التجربة في كل قصيدة. ونحن لن نجتزىء أبياتاً من كل قصيدة ونمثل بها وإنما سنعمد إلى عرض عددٍ من القصائد، نظمت في فترات متباعدة، فهذا أفضل، دون أن يفوتنا التركيز عندما يقتضي الأمر ذلك.

في قصيدة «المشرّد» (ص ١٥٦)، وتعود لفترة ١٩٥٣، يبدأ الشاعر بالدعوة إلى حمل الجرح **والسَّير** في وحدة أنبتت، فيما مضى، «أنضر عشب» فـ:

نحن إن لم نحترق كيف السنى يملأ الدنيا ويهدي كلّ ركب

ثم يكرر الفعل **سْرِ** ويصف الواقع المزري للأهل ضحايا الظلم. ويتساءل عمن يحمي الحمى أأولئك الذينَ شردوهم؟ وهم:

زعماءٌ!... دنسوا تاريخكم وملوكٌ!... شردوكم دون ذنب
وجيوش غفر الله لها سلَّمت أوطانكم دون حرب

ويأتي، بعد هذا، تصوير اللقاء والغد المشرق:

وأرى السمراء تلهو بالهوى تهب النُّور لعينيّ كل صبّ

الغد هذا يدعو إلى كفكفة الدموع، فالدمع لا يجدي وإنما السَّير ويكرر: **سْرِ** وينتهي إلى التأكيد:

يا أخي!... ما ضاع منا وطن خالد نحمله في كلّ قلب

في قصيدة «المشرّد» التي عرضنا، دعا الشاعر إلى السَّير وحرَّض عليه مصوراً الواقع الأليم ذاكراً أسبابه مشوِّقاً إلى غدٍ مشرق وانتهى إلى رفض الاستسلام وتأكيد خلود الوطن. والقصيدة، إضافة إلى كونها تتسم بميِّزات القصيدة العربية التقليدية الجيدة، تمتاز بلمسات فنية وُظِّفت في خدمة الغرض كتكرار فعل سْر الذي يبدو وكأنه اللسع المحرِّض الدافع. والسخرية من الجيوش العربية بـ«غفر الله لها»، والكناية عن عَودة الحياة الطبيعية. بالبيت: «وأرى السمراء...» الرائع في تصوير عودة هذه الحياة...

وفي قصيدة «التراب الخضيب» (ص ١٥٨) يذكِّر بماضي الشعب المشرَّد الذي زرع الأمجاد وحطَّم مخالب الطغاة «ثم جارت على البلاد الزعامات...». ويتساءل عمن يجيب